مطالعات الصبا ومؤلفات الشباب

كنت وقد نضجت في سن ولجذتني ايام وادبني دهر ، اتحدث الى نفسي في ما قد طالعتُ ازمان الصبا من كتب لو كان الكتاب منها جنياً مصرياً لكنت اليوم من ذوي اليسار املك الاطيان وواقر العقار ، وكيف اني لم أفد منها شيئاً مذكوراً ولم اع منها الاّ قليلا ، بل حاق بي مرة من طائفة منها اذى كبير تخلفتْ لي عنهُ في رجولتي آثار بالسة وتبعات غلاظ

وكنت ارجع البصر كرة وكرتين في ما الفت من كتب وترجمت ايام الفراوة وطراوة السن فكنت اجدني كارهاً متندماً على ما أنجبت من عمل كان يتوفر لهُ التمام والاتقان لو تركتهُ الى سن التجارب المنضجة والتحصيل الذي ربا ليبلغ باذن الله أشدّهُ

وكنت من قريب اقرأ كتاب (الاسلام خواطر وسوانح) للكونت هنري دي كاستري ترجمة المغفور لهُ فتحي باشا زغلول . وكان الكونت دي كاستري مؤلف الكتاب قد شاهد في ريعان شبابه صلاة المسلمين في صحارى بلاد المغرب وقد اذّن المؤذّن يحيّ على الصلاة فنزلوا من على صهوات خيولهم يقيمونها خُشّعاً ساجدين فاكبر الكونت ما قد رأى وراعه جلال هذا الخنوع لله وأُشرب بحب هذا الدين قلبهُ ، فهمّ يكتب يومئذٍ ما جاشت به نفسه في ثورة العاطفة ، ولكنهُ اتأد ولم يكتب الاّ بعد ان مضى به حين طويل . وفي ذلك يقول في ص ٣ : « كنت في سن يستسهل العقل فيها حلّ المشكلات ويأخذ الاشياء من ظواهرها ويحل الخيال فيها محلّ النقد والتنقيب وينتقد المرء في الامور بغير قيد . وهي سن لو انصف اهلوها لما كتبوا وألّفوا وكنت ارى ان جمال الدين اصدق شاهد على انهُ الدين الحق وصرت اكتب في الاسلام غير شاعر بما يخطهُ القلم طوع الفؤاد

« ولو اني اتبعت مجرد الظواهر وقضيت على الامور بغير تأمل وتدقيق لجاء كتابي مذموماً ورماني المستشرقون بالخفة والطيش كما يرمون بحق بعض مؤلفي الجزائر من الاوروباويين »

اما حين تناهى شباب الكونت وامسى رجلاً مستوياً نضيجاً مستتم التجارب ثقيل النظر في الامور خير الرأي والمعرفة فقد كتب في الاسلام كتاباً يرضي المسلمين والمستشرقين والعقلاء المنصفين

قرأت سطور هذا الكاتب في مطالعات الشباب ومؤلفاته فطاب عندي مذاقها وطربت لهذا الاتفاق في الخواطر بين كاتب وكاتب ، فقلت فلا كُتبنَّ في هذا رأيي واختباري فاني احسب ان فيه لنشئنا وفتياننا عظة وان لهم منهُ درساً نافعاً

***

نشأت مولعاً باضافة من الكتب ثلاثة : كتب اللغة والادب ، وكتب الحكمة والفلسفة ، وكتب الاقاصيص والروايات . وكان للروايات عندي في سن المراهقة منزلة الصدر . فما ابقت مطالعتي منها على شيء وجدتهُ في خزانة ابي او في خزانة رفاق التلمذة مما كانوا يعيرونني اياهُ منها . فما جانب التفكير منها والافادة فشيء يسير الفيتهُ في بعض روايات الفرنسويين من نسّاج الحقائق والمقررات العلمية والفلسفية من طائفتي الناتوراليست (naturalistes) والرياليست (réalistes) واحتاج اليوم الى مراجعته لاذكرهُ ذكراً تامًّا ولافيد منهُ فائدة بينة مثل روايات ستندال وبلزاك وزولا وموپاسان

اما الجانب النفسي والاخلاقي فجانب واأسفاه خراب كلهُ خرجت من قراءته بالمضرة البالغة فان في طبيعتي ، وانا رجل عصبي المزاج ، ميلاً الى لذات الاحلام وتخدير الخيالات وما اليهما من افراط التأثر وغلبة العواطف التي هي جميلة في النساء ومكروهة اذا افرطت في الرجال . فلقد قلبت الرواية في عيني الحياة — وحسبُ الشاب جهلاً بالحياة ! — وجعلتني اريد ارادة المتمنت القاسي تطبيق الذي اقرأهُ في الرواية على ما انا صانع بالناس والناس صانعون بي متناسياً عن حقائق الامور ووقائع الدهور فاوذيت من الناس بالحديمة واوذيت من الحوادث بطاعتي لها في مجراها ومجادلتي لها في قضائها الذي سُنَّ لها وكتب ، فلم افق الاَّ يوم شارفتُ السادسة والثلاثين وقد كدت أهن واتضعضع ويذهب جمعي وكلي ، وليس بيدي من الوف الفرص الحسان التي عرضت لي واغرتني بحلاوتها شيء

اما كتب اللغة والادب وكتب الحكمة والفلسفة فما افدتهُ منها على كثرة الغوص وامعان النقب كان كرؤيا الاحلام تُذكر منها اشياء وتنسى اشياء لا لحام بينها ولا صلة . وكان عليَّ ان اعيد قراءتها مرات وكان خير هذه المرات مرة النضوج واكتمال التجربة والتفكير

واضرب لك مثلاً بكتاب « فقه اللغة » للثعالبي الذي حفظتهُ في الصبا غير مرة وكتاب « اميل » في التربية لروسو وكتاب « التربية الاستقلالية » لالفونس اسكيروس وكتاب « سر تقدم الانجليز اليكسونيين » كل اولئك وما اليها من نفائس المصنفات لم افهم

كنهها واقتبس فوائدها واستخرج منافعها الا حين ارجعتُ البصر فيها كرة اخرى هي كرة السن الناضجة المبصرة

واحب ان اخص لك بالذكر من بين هذه الكنوز وافردهُ بالتنويه كتاب «سر النجاح» للعالم الفاضل صموئيل صميلز وترجمة طيب الذكر فقيد العلم والفلسفة العلامة الدكتور صروف . فانهُ خير كتاب وقع في يدي ، تعلمت منهُ كثيراً ونفعت . فاني قرأتهُ ثلاث مرات آخرهن في هذه الايام . أفأنبئك بعجيب ، هو اني قد اهتديت في هذه الاخيرة من مطالعاتي الثلاث لهذا الكتاب ، الى اشياء جمة عظيمة الفائدة لم اكن قد اهتديت اليها من قبل ولا افدت منها ما افدتهُ اليوم من فائدة هي خير من كنز ؟

اما مؤلفاتي ومعرباتي فما انا عنها ، على ما بي من حرص وترجيح لوزن الاتقان في ما صنعت يداي على وزن التجارة وشهوة التكسب منذ ان امسكتْ يميني بقلم ، ما انا عنها براضٍ كل الرضا واجدها بحاجة الى ان اكتبها من جديد بقلم السن التي هذبها صقال الدهر . وما احسن ما كتب في ذلك الجاحظ اذ يقول :

« وينبغي لمن كتب كتاباً الاَّ يكتبهُ الاَّ على ان الناس كلهم لهُ اعداء وكلهم عالم بالامور وكلهم متفرغ لهُ ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه ينبّ ويختمر ولا يثق بالرأي الفطير فان لابتداء الكتاب فتنة وعجباً فاذا سكنت الطيبة وهدأت الحركة وتراجعت الاخلاط وعادت النفس وافرة ، اعاد النظر فيه وتوقف عند فصوله توقف من يكون وزن طمعه في السلامة انقص من وزن خوفهِ من العيب » ثم هل تراك وجدت كتاباً قيماً مخلداً الاَّ وقد اخرجهُ صاحبهُ وهو في الرجال مكتمل نضيج ؟ كل عمل جليل وضع عظيم وبدع بديع كانوا نتاج سن الاربعين او حواليها ، وسير الاولين والحاضرين فيها مصداق ما نقول

فهذا ابن رشد فيلسوف الاندلس كان اعظم مؤلفاته واشهرها شرحهُ الكبير لمؤلفات ارسطو اخرجهُ للناس وهو في الخامسة والاربعين . وزولا الروائي الفرنسوي المشهور فقد اخذت تطير في الناس شهرته يوم اخرج لهم وهو في الثانية والثلاثين رواياته المطلة المعروفة بروجون ماكار (Rougon-Macquart) وهي تقع في عشرين جزءاً واتمها وهو في الثالثة والخمسين . واديسون المخترع الاميركي العظيم بدأ يتحف الانسانية بمعجزات اختراعاته وهو في سن الثلاثين . وموپاسان القصصي الفرنسوي المشهور بدأ الناس ينتفعون باطيب قصصهِ وهو في الخامسة والثلاثين . وولتر سكوت الروائي الانجليزي

الذائع الصيت اخرج اشهر مؤلفاته وهو في سن الاربعين . ودريدن الشاعر الانجليزي المعروف نضج شعره وجاد ، وهو في سن الثانية والاربعين ولدينا من ذلك امثلة كثيرة على ان الصبا قلما يجيد او يبدع وإنما هو سن الإعداد وتهيئة المجوّدات والجلائل والبدائع التي هي مواليد الرجولة المحنكة والكهولة المختبرة الناضجة وما اردنا بهذا ان يجعل الشباب يدهُ مغلولة الى عنقهِ يمضي في سكون ويمرح في غير ما عمل فليقرأ الشبان ولكن ما كان لائق بهم واجدى عليهم ، وليؤلفوا ولكن فليعلموا انهُ ليس بالتأليف الذي تقر به اعينهم وتلتذ به انفسهم ، ولكنهُ جسرهم لابد عابروهُ ليصلوا الى ما سيجدون به بَرْد السرور وينالون به مرضاة الناس وثناءهم الحق

ومن العبث والجنف ان تطمع من الحداثة والشباب ان يتعقلا ما يطالعانه من كتب تعقل النضج والاكتمال فان علوم البشر وآدابهم تداولتها عصور وتعاقبت في تكوينها وانضاجها اجيال والعقل البشري خاضع لهذه السنة ولا يحيد عن سلوك هذه الجادة مصرفاً ولا وسيلة فان لهُ حدوداً معينة وازماناً محددة يبلغ فيها تمامه ويعيى اهلاً للكسب متهيأً للاستفادة وجودة الاستغلال . ولا بدلهُ من توفية مدة صقاله وغاية تهذيبه وزمن تقلقله وتقلبه واضطرابه حتى يصير الى حد الاتزان والارتكاز . لهذا كانت استفادة الشباب بمطالعاته سقيمة عرجاء . ولكتاب واحد يطالع في سن النضج خير من عشرين كتاباً تلتهم في سن الحداثة والشباب

والذي اراهُ للشباب ان لا يقرأ الاّ ما لهُ بطلوعهِ مدة الدراسة ، صلة وعلاقة متينة فيطبقهُ حين يفرغ من الدرس الى العمل ليجود بهِ عمله ويثمر ، وليجتنب الاحداث والشبان مطالعة الروايات والاقاصيص ايًّا كانت وما اليها من معارض السيّما فانها لهم لشغلة ومضلة واذى بالغٌ . ذلك ان هذه الروايات انما تتغذى من الخيال وتهيم في وديانهِ وتريك صوراً من الحياة هي في الغالب غير ما أنت ترى وتصطدم بهِ كل يوم . والذي يعيش بين الناس ويبغي في الحياة النجاح وجب عليهِ ان يستبضع الحقائق وسعه وان لا يستجلب من هذا الخيال الاّ بالقدر اللازم لهُ في صنعته او عمله حسب ما تحتاج منهُ لتكمل وتجود . اما السلوك والمعاملة فما لهما بهذا الخيال علم ولا هما يقيان لهُ اي وزن . وليس يناجح في الحياة مهتدي المسالك الاّ الذي ينظر الى الامور كما هي والى الناس كما فطرهم الله او كونتهم عاداتهم وأمزجتهم

حتى اذا ما ولج الشاب باب العمل وبلغ زمانه فليكن كما تريدهُ حاله الجديدة مكبًّا

على صنعته تجويداً لها واذاعة لشهرته بها مُحدقاً بعينيه في ما يرى ويسمع من الاشياء والناس مستخرجاً مما رأى وسمع العبرة والعظة ، كاسباً لنفسه الدرس والفائدة . من اجل هذا أرى لهُ ان يجعل المطالعة في الكتب العشر والسمة الاعشار الأخر مطالعة في كتاب الطبيعة . وما تحوي من ناس وحيوان ونبات متعرفاً سننها متتبعاً لمجاريها ، متعقباً للامور ، متقصياً لحركات الناس وسكناتهم ، لتفيد علماً واختباراً ونظراً وهداية وصواباً . واولئك جميعاً وسائل النجاح وادوات التوفيق والتيسير . وهو اذا تكوّن من عسير الاختبار وتحمل ، وبلغ ما شاء ان يبلغ من النضوج والكمال كان ما يقرأهُ من الكتب منهُ مفهوماً جليًّا قريب التناول ، ولا يفضي عليهِ بعد شيء مما يسنهُ لهُ كاتب في كتاب يقرأهُ او قاعدة من قواعد السلوك يقررها لهُ ، او خطة من خطط النجاح يرشدهُ اليها ، او قانوناً من قوانين الحياة يعرفهُ اياهُ . وانما هو يقرأ في الكتب حكمة الغير عن معالجتهِ لامور الحياة ، ويطلع على اختبار مختبر ودرس دارس . فالسبيل التي سلكها فليسلكها هو كذلك وليعالج ما عالجهُ ذاك . والناس انما يتفاضلون بالاجتهاد والاختبار

وليجعل الشاب الى جانب ما يطالعهُ من هذا العشر من كتب تعزرُ بها معرفتهُ في قواعد صنعتهِ او عملهِ واسرارها ، ويبلغ بها الى الاجادة والنبوغ فيهما ، تلك الكتب المتضمنة للحقائق والمعارف ومباديات الحياة التي يقوى بها عقله ويستحكم بها تفكيره ، ويسلم بها حكمه مثل كتب العلوم والمعارف ، والكتب التي تذكي عزيمتهُ وتشحذ همتهُ ، وتغريهِ بالمعالي وتفتنهُ بالكدح وجميل الجهاد فيكون في الحياة ما قالهُ الشاعر :

وتحتقر عندي همتي كل مطلب ويقصر في عيني المدى المتطاول

امثال كتب السير التي تُعدّهُ للاستفادة من الحياة وتكسبهُ المعرفة والاختبار ما يأمن من الزلل والعثار ، وتفطنهُ الى اغتنام الفرص وشدة الحرص على عدم اضاعتها . وأحسن كتاب في نظرنا وانسبهُ ، يقتنيهِ الشاب منها ويجعلهُ في رأس ما تحتوي خزانتهُ من كتب ، كتاب « سر النجاح » الذي اوردنا لك ذكرهُ في صدر مقالتنا واؤكد لشبابنا انهُ ما من كتاب يهديهم الى مسالك النجاح ومواليج العظمة مثل هذا الكتاب الذي صح في مؤلفهِ الفاضل صموئيل صميلز وشُهديهِ الى شباب مصر والشرق المأسوف عليهِ علامتنا الدكتور صروف ، ما أثبتهُ المؤلف في ص ٢٧٣ من كلام فرنسيس هُرنر الذي كان يُثبت في مذكراتهِ اسماء الكتب التي طالعها فنثر منها غنماً عظيماً فقال في ذلك : « واني اعد الرجل الذي يُظهر للعالم كيفية البلوغ الى العظمة من احكم الناس »

كذلك وجدنا مؤلف الكتاب وسريرتهُ المأسوف عليه . وشبابنا اذا طالعوا هذا الكتاب مطالعة الامعان والتروية والاستفادة فانا ضامن لهم في حياتهم النجاح الاوفر

وليجعل شبابنا هذا العشر مما يقرأون قليلاً مختاراً ، مضموناً نفعه ، غير منكورة قيمتهُ ، فيعاودوا قراءته كل حين من دهرهم مثنى وثلاث ورباع فان الافادة في الاعادة ، وفي التكرار الاجادة . وفي ذلك يقول اللورد ددلي نقلاً عن كتاب « سر النجاح » : « اني مغرم بالاقتصار على الكتب المفيدة التي طالعتها وعرفت فائدتها واشهد ان قراءة كتاب عتيق مرة ثانية افضل من قراءة كتاب جديد لم يُقرأ قبلاً وان لم تكن الذمتهُ »

أما حين يخلع الرجل بُرد الشباب ليرتدي ثوب الكهولة واستواء السن فليفرغ للمطالعة ما شاء لهُ الهوى ان يتفرغ وليجعل لها بعد ان يكون جال في الحياة مجاله ، واستوفى علماً وتجربة ، وكدحاً وخبرة ، واستيثاقاً لحاضره ومُقبله ، واعداداً لنفسه ولاهله ، وتوطيداً لمعاشه وحاله ، وادراكاً لبغاته ونجاحه ، ليجعل لها تسعة الاعشار او عشرة الاعشار فما وجدت في مثل هذه الحال مثل المطالعة خدناً مواتياً ، وسميراً ملاطفاً وأليفاً وفيًّا وناصحاً نصوحاً ومعلماً مجزلاً للفوائد . وحكيماً يهوّن من اذى الناس وشرورهم ويلطّف من تنكّر الايام وغدرها فان الكتاب كما قال الجاحظ :

« هو المعلم الذي ان افتقرت لم يحتقرك وان قطعت عنهُ المادة لم يقطع تلك الفائدة وان عُزلت لم يدع طاعتك ، وان هبت ريح اعاديك لم ينقلب عليك ومتى كنت منهُ متعلقاً بسبب او معتصماً بادنى حبل لم تضطرك سمتهُ وحشة الوحدة الى جليس السوء . ولو لم يكن من فضله عليك واحسانه اليك الا منعه لك من الجلوس على بابك والنظر الى المارة بك مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ومن فضول النظر ومن عادة الخوض في ما لا يعنيك ومن ملابسة صغار الناس ومن حضور الفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة واخلاقهم الردية وجهالاتهم المذمومة لكان في ذلك السلامة ثم الغنيمة واحراز الاصل مع استفادة الفرع ولو لم يكن في ذلك الا ان يشغلك عن سُخف المنى وعن اعتياد الراحة وعن اللعب وكل ما اشبه اللعب لقد كان في ذلك على صاحبه اسبغ النعمة واعظم المنة »

هذا ما احسب اني كتبتهُ بعد تجربة طويلة وإطالة اختبار عسى ان اكون في مساعته لشبابنا قد افدت وفي نصحهم احسنت وبلغت

احمد ابو الخضر مشي